

٣ - العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المحدث : وتبين في المعجوز (ن) أثرُ التعب فتوجع وأخذ يئنُّ كأنَّ بهضه قد مات لوقته ... أو وقع فيه اختلالٌ جديد أو نالته ضربةُ اليوم ؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المركة الفاصلة بينه وبين أيامه

ثم تأفف وتملل وقال : إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به قال الأستاذ (م) : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطبَّقةً فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات ، فاخرج من المحكمة إلا إلى المجلس الثالث

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « المجلس البسيط » و« المجلس مع الشغل » فما هو هذا المجلس الثالث ؟

قال : هو « المجلس مع المرض » ...

قال (ن) : صدقتَ لعمري فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا ؛ وكأن كرمي للوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرمي الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين ... أتدري معنى قوله تعالى : « ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر » ولم سماه الأردل ؟

قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خَلَطُ الانسان بهضه يعض ، ومسخُّه من أوله إلى آخره ، فلا هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أردأ وأرذل ما في البضاعة ...

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت في الثلاثين من عمري ، وهذا هو الذي جعلني فتى حين بلغت السبعين

قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك

قال : بل أنا أكرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من

قبل أن سَمَعَةَ الاتفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدداً) لا يخطئُ الحساب ، فإذا أنا اقتصدتُ عدتُ لي ، وإذا أسرفتُ عدتُ عليّ ؛ ولن تعطيني الدنيا بعد الشباب إلا بما في جسمي ، إذ لا يعطى الكون حياً أراد أن ينتهي منه ، فكنت أجمل نفسي كالشيخ الذي تقول له اللذات الكثيرة : لستُ لك ، ومن ثم كانت لذاتي كلها في قيود الشريعتين : شريعة الدين وشريعة الحياة

قال : وعرفت أن ما يسميه الناس وهنَّ الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الانسان في تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والاعغال والارهاق والسرور والحزن واللذة والألم ؛ فكنت مع الجسم في شبابه ليكون مئى بعد شبابه ، ولم أبرح أتماهده كما يتماهد الرجلُ داره ، يزيد محاسنها وينفي عيوبها ، ويحفظ قوتها ويتقن ضعفها ، ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر في يومها القريب لندما البعيد ، فلا ينقطع حسابُ آخرها وإن بُدَّ هذا الآخر ، ولا يزال أبداً يجتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع

قال المعجوز (ن) : صدقت والله فما أفلح إلا من اغتم الامكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب . وهذا الجسم الانساني كالدينه الكبيرة فيها (مجلسها البلدي) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ، ورئيس هذا المجلس الارادة ، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كثيره من القوانين إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر

قال الأستاذ (م) : وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضائه ذلك (المجلس البلدي) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على ساتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة أو مفسدة من زينة أو مطممة في رفاهية أو دعوة إلى مدنية أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها أو يضعف طبيعتها

والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية في برائه وطهارته ، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها ونشاطها . وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بمقامتها

نفس أبواب التجنى ، ويجعل النَّفْرَةَ وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة
لقد جاء العلم بالمعجزات ولكن فيما بين الانسان والطبيعة ،
وبين الانسان ومانعه ، وبين الانسان وشهواته ؛ فهل غير الدين
يجيء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس
وهومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب ؟

قال المحدث : ثم نظر الى العجوز (ن) وقال : صل عمك
يا بني بالحديث الذي مضى ، فأين بلغنا آتفاً من أمر التجديد
والمجدين وماذا قلنا وماذا قلت ؟ أما إن الحاقة الجديدة والرزيلة
الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو
قديم في الدنيا ؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا اطلاق الحرية في
استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والخطأ والغرور
والمكابرة

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ولكن
بالباطن الذي هو فيه ؛ نستثنى المجازيب قصر من القصور في
ظاهره ولكن المجازيب هم حقيقته لا البناء . وكل مجدد عندنا
يزعم لك أنه قصر عظيم وهو في الحقيقة مستثنى مجانين ، غير أن
المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات . وعلى هذا ما الذي يمنع
العجوز التوقع أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تترص على هذه التسمية زعموا
لك أن للفن وقاحة مقدسة وأن (لأدبية) رجل الفن هي
(اللأ أخلاقية المالية)

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استملت بين أهل
الحياء وأهل الفضيلة ودعت الى مذهبها ، كانت تجديداً ما في
ذلك ريب . ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض إذ هو
بينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلق الله
البهائم

قال (ن) : وقل مثل ذلك في مستحط على الله وعلى الناس
ينخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديداً ، وفي مغرور يتغفل
الناس ، وفي لص آراء ، وفي مقلد تقليداً أعور ؛ كل واحد من
هؤلاء ، وأشاهمهم مثلي بطة ، فذهب رسالة عاتيه ؛ وأكثرهم

إلى آخر العمر في هذا الانسان ؛ فسرُّ الطفولة إنما هو في قوتها
على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغىها النفي ،
ولا يكسرهما الفقر ، ولا تذلمها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا
يهولها الاخفاق ، ولا يتماظمها الضر ، ولا يخيفها الموت . ثم
لا تملُّ وهي الصابرة ، ولا تبالغ وهي الراضية ، ولا تشك وهي
الموقنة ، ولا تسرف وهي القانمة ، ولا تتبلد وهي العاملة ، ولا
تجمد وهي التجولة . ثم هي لا تكلف الانسانية إلا العطف والحب
والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب ؛ ولا توجب
شريمها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا
طهارة النظر ؛ ثم تهكم بالدنيا أكثر مما تهتمُّ لها ، وتستغنى فيها
أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن ؛
قلٌّ أو أكثر

وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة النضة واستمرارها
ونموها ؛ ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبَّ غلام ولا رأت
الميون بين هموم الدنيا ذلك الرُواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال
يثبتان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة

وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدين في
تهذيب الحياة وإطرادها على أصولها القوية السليمة ، ومتى قوى
هذا الدين في إنسان لم تكن مفاسد الدنيا إلا من وراء حدوده ،
حتى كأنه في أرض وهي في أرض أخرى ؛ وأصبحت البراءة في
نفسه أقوى من الطبيعة

ثم قال : والمعجب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق
أبدأً بأحسن ممانيه وأكلها إلا في قلبين : قلب الطفل لأنه طفل ،
وقلب المؤمن لأنه مؤمن

فقال العجوز (ن) : إنه لكما قلت ، ولعنة الله على هذه
الشهوات الآدمية الباطلة . فان الشهوة الواحدة في ألف نفس لتجمل
الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادلة متنازعة . والطامسان
في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة وهي القتل .
ولعنة الله على الملاحدين وإلحادهم ، يزرون على الأديان بأنها تكاليف
وقيود وصناعة للحياة ، ثم لا يملون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية
التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة ، فإبتليت الانسانية
بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل

لا يكون ثباته على الرأي الفاسد إلا من ثبات العلة فيه

قال المحدث : وكنت من المجددين فأرمنى ذلك ، وقلت للمجوزين : إن هذا نصف الصحيح ؛ أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة . نعم إنهم لا يستعملون حقهم في الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حقها

فضحك المجوز (ن) وقال : يا بني إن الجديد في كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى ... فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هي الجديدة . ولو كان البرهان في حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقيين لا في حلق حمارنا المحترم . . .

قال (م) : وزعموا أن رجلا نصب فخا لصيد العصافير ، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شيء جديد فقال : يا هذا ! مالك مطمورا في التراب ؟ قال الفخ : ذلك من التواضع خلق الله . قال : فمِمَّ كان انحناؤك ؟ قال الفخ : ذلك من طول عبادتي لله . قال : فما هذه الحجة عندك ؟ قال الفخ : أعدتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها . قال العصفور : فتبيحها لي ؟ قال : نعم

فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ في عنقه ، فقال وهو يحتقن : إن كان المبدأ يخفقون مثل هذا الخلق فقد خلق إبليس جديد

قال (ن) : فالحقيقة أن إبليس هو الذي تجدد ليصالح لئلا من الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول . وما دام الرق مطردا وهذا العقل الانساني لا يقف عند غاية في تسخير الطبيعة ، فينتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة .. لاستخراج كل ما فيه من الشر

قال (م) : ولكن العجب من إبليس هذا . أترأه انقلب أوربياً للأوربيين ؟ وإلا فباله يخرج فيهم مجددين من جيايرة العقل والخيال ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جيايرة التقليد والحماقة ؟

قال المحدث : فقلت لها : أيها المجوزان القديمان ، سأنتشر قولكما هذا ليقراء المجددون

قال الأستاذ (م) : وانتشر يا بني أن الربيع صاحب الامام الشافعي مر يوماً في أزقة مصر فنثرت على رأسه إجابة (١) مملوءة رمادا ، فنزل عن دابته وأخذ ينفخ ثيابه ورأسه ققيل له : ألا ترجرهم ؟ قال : من استحق النار ووصلح بالرماد فليس له أن يفضب . . .

ثم قال محدثنا : واستولى على المجوزان ورأيت قولهما يملو قولي وكنت في السابعة والعشرين وهي سن الحجة العقلية فاحسبني معهما إلا ثلث مجوز مما أثار على ، وانقلبت لا أرى في المجددين الا كل سقيم فاسد ، واعتبرت كل واحد منهم بطلته ، فاذا القول ما قال الشيخان وإذا تحت كل رأى مريض مريض ، ووراء كل اتجاه ابرة منطاطية طرفها إلى الشيطان . . . وفرغنا من هذا فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين التيوم أيها الفيلسوفان ؛ أما كنتم في سنة ١٨٩٥ من الجنس البشري . . ؟

(لها بقية - ططا)

عبد الحليم سلام

(١) قصة

ظهر حديثاً كتاب :

الثورة الوهابية

تأليف الأستاذ عبد الله علي الفصيمي النجدي

أروع الثورات . التل الأعلى للبطولة العربية الاسلامية - بحث تحليلي للذهب الوهابي . العقيدة السليمة - الملك بن سعود . نبوغ الصحراء - التجديديون نموذج الزمن الكامل - وثيقة دينية لأحد أمراء آل سعود . آراء الشيخ المراغي في تجديد الاسلام وتقدها الخ . الخ . . . ص ١٦٠ من القطع الكبيرة الثمن ٥ قروش

ويطلب من سائر المكاتب ، وبخاصة بيع الجملة الشيخ عبد الحليم سلام الكوفي بالصادقية - بجوار الأهرام والمكتبة التجارية بشوارع محمد علي بمصر